د/خالد بوزياني
أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية

محور المداخلة: **اللغة العربية في مدارس التعليم ما قبل الجامعي**

(السياسات التعليمية واللغة العربية)

عنوان المشاركة: **من أجل تخطيط لغوي أفضل لتعليمية**

اللغة العربية في الوطن العربي

Pour une meilleure planification linguistique
de l'apprentissage de langue arabe dans le monde arabe

ملخص المداخلة:

تتمحور إشكالية المداخلة في البحث عن آليات تفعيل تعليم اللغة العربية في المنظومة التربوية العربية ضمن إستراتيجية التخطيط اللغوي التي شهدتها مراسيم ومخططات العقدين الأخيرين من القرن العشرين، والوقوف على التحديات الراهنة والمستقبلية للتفتح اللغوي من أجل اكتساب المهارات والمعارف في شتى المجالات العلمية.

إن التسابق غير الطبيعي الذي تشهده بلدان العالم العربي والإسلامي لتبني المناهج التعليمية والتربوية من العالم الغربي ليعد فشلا ذريعا في بناء منظومة ثقافية واجتماعية عربية إسلامية وذلك عبر تنكر وتجاهل الإبداعات العربية والإسلامية في شتى مجالات العلوم والمعارف التي استفاد منها علماء الغرب وأضافوا إليها إبداعاتهم الخاصة بما يلائم الخصوصية الثقافية والاجتماعية لشعوبهم.

إن معظم هذه السياسات عرفت اضطرابات عنيفة أدت إلى نتائج سلبية مرة باسم التعريب ومرة باسم تفضيل لغة على لغة أخرى بحسب الترتيب أو الأولوية، مما أدى في النهاية إلى جيل من التلاميذ لا يستطيع التحكم بالقراءة والكتابة والحوار والنطق السليم ويتعذر على الأغلبية تحرير رسالة عادية بلغة دقيقة صحيحة.

من أجل هذا ينبغي تصحيح الوضع اللغوي الصعب الذي نعيشه اليوم وذلك باستراتيجيات تخطيط لغوي تحفظ للمجتمعات العربية لغتها وفي الوقت نفسه تمكنها من اللغات الأجنبية باعتبارها نافذة على العالم ووسيلة اتصال وتفاهم مع الشعوب وأداة تطوير للمعارف العلمية الحديثة.

محاور البحث:

1. أسس اختيار سياسات لغوية تضمن وحدة ومقومات العالم العربي والإسلامي اللغة العربية
2. البحث عن الآليات النظرية لتفعيل تعليم اللغة العربية من المنظور السوسيولوجي والثقافي والمعرفي في منهاج اللغة العربية.
3. المعجم والدلالة وأثرهما في تنمية القدرات اللغوية لدى التلاميذ.

إن سياسة التخطيط اللغوي في بلدان العالم العربي بين الواقع والرهانات المستقبلية، بين واقع مليء بالمتناقضات ومجتمعات بدأت تفتقد كثيرا من عناصر هويتها وأجيال تقف على عتبات المجهول تتطلع إلى صوغ عالم جديد، عالم مفتوح على كل الاحتمالات، مما يستدعي ضرورة الإسراع في بناء منظومة فكرية عربية عن طريق إستراتيجية تخطيط لغوي تحمل على عاتقها مواجهة تحديات العصر على كافة الأصعدة المعرفية والاجتماعية والاقتصادية.

أسس اختيار سياسات لغوية تضمن وحدة ومقومات العالم العربي والإسلامي اللغة العربية:

اللغة وسيلة تخاطب وأداة لاكتساب المهارات والمعارف، وبؤرة الصراع، من أجلها قامت حروب دامية وفتن قاتلة مزقت أشلاء شعوب وأمم، وأنهكت قوى الأقليات وأضرمت روح العصبية، وبها استعبدت شعوب وقهرت إرادتها وذلت نفوسها وامّحت هويتها وأغلق أفقها وتلاشى مستقبلها وتبدد أملها.

تلكم هي اللغة إنها كيان وهوية بها يصنع المجد كله، وبسببها تنشب الحروب، وأكبر حرب على الإطلاق ما اصطلح عليه بحرب اللغات[1]، وهذه الحرب ليست حديثة عهد بل هي محفورة في عمق الذاكرة الإنسانية منذ زمن أسطورة برج بابل ومنذ أن أراد الملك نمرود أن يشيد في بابل قلعة شاهقة يمتد ارتفاعها إلى السماء حيث العرش الإلهي، لكن الله أخفق ذلك البناء بزرع البلبلة بينهم فاختلفت ألسنتهم عقابا لهم.

ولقد واستمر الأمر عند الإغريق فكانت اللغة وسيلة تفريق بين الطبقات الاجتماعية في البحث عن الأصول الإغريقية وبقية الطبقات الدنيا والتي كان يطلق عليها اسم لغة البرابرة La Langue des Barbares[2]، فليست اللغات كلها في مستوى واحد من حيث القيمة فهناك لغات عليا ولغات أخرى دنيا[3] مما سبب في أغلب الأحيان حروبا أهلية وذلك أثناء البحث عن ميكانيزمات الهيمنة اللغوية.

من أجل هذا قامت الدول بتخطيط سياسات لغوية تتناسب مع هوياتها وطموحات شعوبها. والسؤال المطروح هنا: ما المقصود بالسياسة اللغوية؟

عندما نتكلم عن السياسة اللغوية فإننا نعني بذلك القوانين الرسمية التي تخطط لتهيئة لغة معينة في مجتمعات متعددة اللغات فتجعل من لغة معينة رسمية بقوة القانون والدستور،[4] ومن المصطلحات التي أعطيت لهذا المفهوم التنمية اللغوية L'Aménagement Linguistique[5] وكذلك التخطيط اللغوي أو هندسة اللغة la Planification linguistique وقد اعتبر العالم (هاجن) أول من استخدمه سنة 1959 حيث عرفه كالآتي:"هو نشاط يستهدف إعداد الضبط والتشكيل الهجائي والقواعد اللغوية وقاموسا لإرشاد الكتاب والخطباء في مجتمع لغوي محلي غير متجانس"[6] ويعرفه (ويستن Weistein):"مفهوم التخطيط اللغوي يمكن تعريفه كمصطلح حكومي سلطوي طويل المدى بوصفه جهدا واعيا لتغيير اللغة ذاتها أو لتعديل وظائفها في المجتمع بهدف حل مشكلات الاتصال والتواصل بين أفراده"[7].

قد تكون مهمة السياسة اللغوية صعبة ومعقدة عندما يتعلق الأمر بالمجتمعات التي يكثر فيها التعدد اللغوي كدول القارة الإفريقية التي تتواجد فيها ما بين 1250 و2100 لغة ولهجة مما استدعى تدخل هيئة اليونسكو في المؤتمر الدولي للسياسات اللغوية في إفريقيا المنعقد في هراري بزمباوبوي بتاريخ 21/17 مارس 1997 فعلى سبيل المثال نلاحظ عدد اللغات المتواجدة في البلدان الإفريقية في الجدول الآتي[8]:

البلدان الإفريقية	عدد السكان	عدد اللغات
نيجريا	105 مليون	410
تانزانيا	28 مليون	120
بيركينافاسو	9 ملايين	60
بنين	3 ملايين	58

سياسة التخطيط اللغوي في الوطن العربي:

في ما يخص العالم العربي، فإن الشعوب العربية تقف على عتبة المجهول عندما لا تعي ما اللغة؟ وعندما لا تدرك المخاطر والتحديات الجيوسياسية ومخططات العولمة في ظل تسابق مجنون من أجل هيمنة لغة على لغة أخرى. وعندما تتداخل السياسة بالاقتصاد يصبح للغة الدور الرئيسي في لعبة الهيمنة الاقتصادية.

والسؤال الجدير بالطرح في هذا المقام هو: ما مدى نجاح حكومات الدول العربية في سياساتها اللغوية؟ وما مدى انعكاس ذلك على حياة الأمة من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؟

لقد واجهت العالم العربي في استراتيجياته اللغوية تحديات كبرى سنتناولها في ثلاثة عناصر:

1 . مستوى داخلي يتمظهر في التنوع العرقي وتعدد القوميات، وبالتالي التعدد اللغوي ،ومدى استجابة السياسات العربية لهذا التنوع.

2 . مستوى إقليمي يدور حول توحيد التخطيط على المستوى التعليمي والتقني والعلمي أو عدمه بالأخذ بعين الاعتبار اختلاف السياسات والمجتمعات العربية.

3 . مستوى خارجي يتمثل في تموقع العالم العربي ضمن استراتيجيات جيوسياسية ومخططات العولمة.

وتطرح هذه المستويات الرهانات المستقبلية والتحديات العالمية التي يواجهها العالم العربي من حيث الجوانب المعرفية والتكنولوجية بالخصوص.

أولا: المستوى الداخلي: تتوفر بلدان العالم العربي على تنوعات عرقية بالإضافة إلى القوميات التي تتشكل منها معظم المجتمعات العربية، هذا الواقع فرض إشكالية التعدد اللغوي على الواجهة الاجتماعية والسياسية كضرورات لازمة وملحة استدعت معالجات ضمن سياسات لغوية خاصة بكل بلد كل حسب خصوصيته وتشكيلته العرقية. يبقى أن نتساءل عن مدى نجاح هذه السياسات اللغوية في حل مشكلة الأقليات ضمن مخطط يضمن لها الحرية اللغوية في الإدارة والتعليم والإعلام.إن هذه الإشكالية معقدة للغاية إذا نظرنا إليها من جانب الانسجام اللغوي

في المجتمع الواحد، لذا سنعتمد على بعض الإحصائيات التوضيحية ومن ثمّ النظر في هذه العلاقات المعقدة التي تعيق تحقيق هذا الانسجام اللغوي بين الشعوب العربية.

وسأكتفي ببعض البلدان العربية

بعد هذه الإحصاءات يتضح لنا أن بلدان العالم العربي تمتاز بخصوصية ذات طابع إقليمي تتوزع حسب ما يلي:

1 . بلدان المشرق العربي:

عرفنا من خلال الإحصاءات السابقة أن خصوصية بلدان الخليج والمشرق العربي عموما وما تعرفه من تطور في مجال المحروقات جلب إليها كثيرا من الأجناس والقوميات العربية والأسيوية على الخصوص لأغراض اقتصادية منها رخص اليد العاملة كل هذا التنوع البشري وما تبعه من تنوع وتعدد لغوي فرض مشكلة لغوية ليس على مستوى اللغة التخاطبية ولكن على المستوى التعليمي خاصة وأن الأجناس غير العربية لا تحسن اللغة العربية، وهنا يغدو التحكم في ميكانيزمات التخطيط اللغوي مهمة مستحيلة بالنظر لعدم تجانس هذه اللغات.

والسؤال المطروح: هل قامت هذه البلدان بإستراتيجية واضحة من أجل التجانس اللغوي ؟ ومن ثم هل حققت حكومات هذه البلدان طموحات شعوبها المتطلعة إلى المستقبل؟ إذا نظرنا إلى الأمية التي اكتسحت ولازالت تكتسح أجيالا كبيرة من بلدان الخليج العربي فإن اللغة العربية الرسمية لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تدفع بهذه الشعوب إلى التطور العلمي والتكنولوجي بل الأخطر من ذلك أن هذه الأمية تحول دون بناء منظومة فكرية قادرة على توحيد الجهود العلمية والمعرفية للعالم العربي.إن التأرجح بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية خاصة وأن إقبال الشباب الخليجي على تفضيل اللغة الإنجليزية كلغة للتعلم واكتساب المعارف خاصة في المدارس الحرة . كما سبق وان أشرنا إلى ذلك . يحول أيضا دون تحقيق هذا المسعى.

2 . بلدان المغرب العربي:

لبلدان المغرب العربي خصوصية تتمثل في كون المجتمعات المغاربية تتشكل أساسا من عنصرين العربي والأمازيغي، وطرحت مسألة اللغة الأمازيغية على طاولة المفاوضات لكنها لم تسفر على أي تقدم يذكر في منتصف القرن العشرين أما اليوم فقد أخذت بعين الاعتبار فمثلا في الجزائر اعتبرت لغة وطنية وجزء لا يتجزأ من الثقافة الوطنية ، وفي مجال التعليم أدرجت اللغة الأمازيغية بدية من التمدرس الإجباري وذلك في المناطق الأمازيغية، أما غيرها من المناطق فإن تدريس الأمازيغية يكون حسب الطلب عليه[9]، ومع كل الجهود المبذولة لم تتخطى الدول المغاربية هذه العقبة.

أما فيما يخص التعليم فسياسات التعريب لم تكن ناجحة بدرجة عالية خاصة في الجزائر وبعض الدول العربية الأخرى والسبب في ذلك التسرع في تطبيق تعميم اللغة العربية وإلغاء اللغة الفرنسية في تدريس المواد العلمية خاصة. ثم التأرجح بين اللغة العربية واللغات الأجنبية في السنوات الأخيرة وهذه ظاهرة عامة لكل بلدان المغرب العربي.

التنمية اللغوية والمعرفة:

إذا كانت اللغة من بين أهم الوسائل لاكتساب المعارف والعلوم، فينبغي على بلدن العالم العربي أن توليها الأهمية الفائقة على جميع الأصعدة، ابتداءً من التعليم إلى محو الأمية إلى الاستثمار البشري، وقد ترجمت هذه الاهتمامات في ملتقى الجزائر الدولي حول: "المعرفة والمجتمع". المنعقد في الفترة ما بين 10 . 12 تشرين الثاني 2007 بمشاركة أكثر من خمسة وثلاثين وباحثاً من دول عربية وأوروبية[10].

وتمحور النقاش حول موضوعات أساسية أبرزها:

1. رد الاعتبار للمعارف الفكرية العربية التي كانت فاعلة في مختلف جوانب المجتمعات العربية، وهي تتعرض الآن للإهمال والاندثار. وتم التركيز على ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي العربي وتوظيفه في خدمة التنمية البشرية المستدامة.

2. تعرية المواقف الإيديولوجية المتطرفة، الدينية منها والسياسية، التي ساعدت على تهميش بعض الحقب التاريخية،

خاصة الحقبة الفاطمية، وتجاهلت الإنجازات العلمية الكبيرة التي حققها العرب إبان تلك المرحلة .

3 . التساؤل المنهجي المشروع حول الأسباب الحقيقية التي منعت التراكم العلمي الكمّي من التحول إلى تراكم نوعي في جميع الدويلات الإسلامية السابقة، ولا زالت تعيق بناء مجتمع المعرفة في جميع الدول العربية المستقلة.

4 . معالجة مسألة التعدد اللغوي في الدول العربية والسعي لتحويله إلى مصدر غنى للثقافة العربية وليس إلى مأزق سياسي وثقافي بسبب تجاهل اللغات أو اللهجات المحلية ومحاولة طمسها بالقوة أو عدم الاعتراف بالتراث الثقافي المكتوب باللهجات المحلية. وهو تراث مهم يمكن الاستفادة منه لتعزيز دور الثقافة العربية وتنوع مصادرها ولغاتها منذ القدم.

5. إبراز الدور الكبير والمعترف به عالميا، الذي لعبه العرب في التفاعل الإيجابي بين الثقافة العربية والثقافات اليونانية والهندية والصينية والفارسية. وكانت محصلة ذلك الدور إيجابية جدا بعد أن نقلته أوروبا ووظفته في معارفها ونهضتها.

أما نسب التوظيف المالي في البحث العلمي فتقارب النصف بالمائة فقط في مجتمعات عربية تشهد تراكما ماليا قل نظيره في العالم بعد الطفرة النفطية الثانية في السنوات الخمس الماضية. هذا بالإضافة إلى الهجرة الكثيفة للباحثين العرب باتجاه الغرب والاستقرار في جامعاته ومراكز الأبحاث فيه. ودلت بعض أبحاث الملتقى على أنه مقابل عشرة دولارات توظف في البحث العلمي بالجزائر توظف إسرائيل 1300 دولار. ومقابل 7 % من الدخل القومي توظف في البحث العلمي بالجزائر، توظف اليابان 18.3 % من دخلها القومي في البحث العلمي. هذا مع التنبيه إلى الفارق الكمي الهائل للدخل القومي في كلا البلدين.

التنمية اللغوية والأمية في بلدان العالم العربي:

تعد الأمية من الأسباب الرئيسة في تأخر التنمية في بلدن العالم العربي وقد حذرت كل من(اليونيسيف) و(اليونسكو) و(الالكسو) من استمرار ظاهرة الأمية في البلاد العربية،

إن تقدير عدد الأميين من العرب بما يزيد عن تسع وتسعين مليون نسمة، أكثريتهم من النساء(46 في المائة)، وممن تزيد أعمارهم على15 سنة، يعني أن ثلث العالم العربي لا يعرف القراءة والكتابة، ويعني أيضاً ما يتبع ذلك من تخلف شامل لا يقتصر على العلم والاقتصاد والسياسة، بل سيشمل التربية والصحة والبيئة، وكذلك ضعف التعليم .

إن بيان(الالكسو)لا ينكر الجهود العديدة التي بذلت على الصعيد العربي، لكنه يلفت النظر إلى أن ملف الأمية لم يرتق إلى مستوى الأهمية التي ينبغي أن ينالها في المنطقة العربية التي تعد335 مليون ساكن، كما أن المنظمة نفسها كانت وضعت منذ تأسيسها عام1970، رؤية مستقبلية لمحاربة الأمية ضمت «أول إستراتيجية لمحو الأمية في البلاد العربية العام 1976» كما أنشأت «الصندوق العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار» عام1980.

إن الأرقام المرعبة والإحصاءات التي وردت في رسالة الأمين العام للأمم المتحدة (بان كي مون) في "اليوم العالمي لمحو الأمية"). والتي تتمثل في نحو 774 مليوناً بالنسبة للكبار الذين يجهلون القراءة والكتابة في العالم ثلثاهم من النساء، والأطفال غير بالمتمدرسين يبلغون 72 مليوناً ، وجاء في تقرير منظمة اليونسكو أن "الأميين في العالم العربي يتجاوزون 70 مليوناً يشكلون ضعف المتوسط العالمي للأمية، وتأتي مصر في الدرجة الأعلى بعدد الأميين فيها (17 مليوناً)، وبعدها السودان فالجزائر فالمغرب فاليمن، ولا يزال 10 ملايين طفل عربي خارج التعليم".

في 1980 وصلت الأمية في دول العالم العربي إلى نسبة51.3%

ثانيا: المستوى الإقليمي :

إذا كانت معظم الدول العربية تتخبط في سياسات لغوية داخلية فإنها على المستوى الإقليمي تواجه أيضا مصاعب جمة أهمها عدم تبني إستراتيجية موحدة على مستوى التخطيط اللغوي في المجال التعليمي على الخصوص وتكريس اللغة العربية على أوسع نطاق.

والقيام ببحوث سوسيولسانية تبحث في ميكانيزمات تطوير اللغة العربية والإفادة من اللهجات التي تمثل نسبة 70 .

إذا كانت الأمية بشكلها العام تشكل خطرا أساسيا على التقدم الحضاري للأمة فإن الأمية المعرفية لتكاد أشد خطرا ، فالكل يعلم علم اليقين أن علوم المغرب وأنواع المعارف التكنولوجيا تصدر من الولايات المتحدة الأمريكية ، ومعظم دول العالم العربي فهي لا زالت تكتفي بالفتات وبخطى ثقيلة لأسباب أهمها :

1)عدم ازدهارها حركة الترجمة :

في كل يوم يطالع المثقف والباحث العربي الآلاف من البحوث العلمية المختلفة وفي كل يوم يقرأ من المصطلحات الجديدة ما يعيقه عن معرفة محتوى ما يطالع ، وهنا أشير إلى دور المجامع اللغوية في العالم العربي والتي لا تقوم بمهمتها على أكمل وجه في البحث عن ترجمة المصطلحات والأهم من ذلك توحيدها ، فقد نجد في بعض الأحيان العشرات من المصطلحات العربية في مقابل مصطلح واحد ، ولو رجعنا إلى الحضارة العربية الإسلامية لوجدناها قد نهضت بسبب عدة عوامل أهمها عامل الترجمة فقد انكب المترجمون منذ القرن الأول الهجري على ترجمة التراث اليوناني والهندي والفارسي في جميع المجالات المعرفية ، مما مكن العلماء المسلمين من الانطلاق في أبحاثهم من معظم هذه المرجعيات المعرفية .

يضاف إلى ذلك كله تمكين التلاميذ في المراحل التعليمية من امتلاك ناحية اللغة العربية ، فلا فكر بدون لغة ولا لغة بدون فكر ، فلابد لهذه العلاقة الجدلية أن تجد لها مكانا لدى طلبتنا وتلاميذنا .

ثالثا: المستوى الخارجي والتفاعل مع اللغة الأجنبية :

إن استراتيجية التخطيط في السياسات اللغوية في العالم العربي اتجهت نحو الانفتاح اللغوي لعدة أسباب أهمها :

1. اللجوء إلى أكثر من لغة في التعليم لفتح المجال للأقليات المتواجدة في معظم الدول العربية (أنظر نموذج الإمارات العربية المتحدة للمدارس الحرة)
2. وجود العالم العربي في الواجهة الاقتصادية العالمية ، ووضعه الجيوسياسي جعله عرضة لحرب لغوية بين اللغة العربية واللغة الانجليزية على الخصوص ، فمثلا في الجزائر كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الأجنبية الأولى، وفي أواخر الثمانينات أدخلت وزارة التربية تعديلا بحيث برمجت تعلم اللغة الإنجليزية في الطور الأساسي الأول أي في السنة الرابعة ابتدائي ، لكن سرعان ما انقلب الأمر بعد سنة واحد من هذا الإجراء الذي زحزح اللغة الانجليزية إلى المرتبة الثانية بعد الأولى .

وعلى العموم فإنه لابد من إستراتيجية موحدة وواضحة في التعامل مع اللغات الأجنبية وعدم تغليبها على اللغة العربية ، فمن شأن سياسة مثل هذه أن تفتح المجال واسعا أمام المتعلم والباحث العربي للتعرف على الثقافات والعلوم الغربية ، وفي الوقت نفسه لا يضيع هويته في زمن العولمة .

العوامل المؤثرة في سياسة التخطيط اللغوي

التجربة الجزائرية

إن المنظومة التعليمية لا تعمل على فراغ ، فهي تتأثر بالواقع في عدد المستويات تبدأ بالأسرة التي تعتبر المكان الأول لتنمية شخصية المعلم ونقل التراث الاجتماعي واستيعاب القيم والاتجاهات واكتساب الحس المدني، فلا لا يمكن للمؤسسات التعليمية مهما كانت مؤهلات رجالها وإخلاصهم ومهما كانت عصرية المحتوى التعليمي ووسائل الاتصال أن يرفعوا مردود التعليم إذ لم تتعاون معهم الأسرة.

وقد عرفت بلادنا في السنوات الأخيرة أحداثا أدت إلى تغيرات في البيئة الاجتماعية والثقافية للريف والمدينة على حد سواء والتضخم العددي للأبناء والهجرة الداخلية وأزمة السكن المتفاقمة أدت كل هذه العوامل إلى إلقاء العبء كله على المؤسسات التعليمية [11]

العوامل السياسية والجغرافية :

إن الموقع الجغرافي لأي بلد ومكانتها الإستراتيجية تلعب دورا مهم في وضع الدولة تحت وطأة الاستعمار، فلقد عانت العديد من الدول من ويلات الغزو طوال القرون العديدة، وكان أول أمر اهتم به المستعمر هو طمس الثقافة وتحريف الأفكار فكان جهده الجاهد هو محاربة لغة الدولة المستعمرة وتغليب لغته عليها بجعلها هي اللغة الرسمية وذلك بإتباع سياسة خاصة، ولكن بعد أن نالت الدولة المستعمرة طريقها شرعت في أول الأمر إلى إعادة الاعتبار لكيانها الثقافي والقومي والديني وذلك بإرجاع لغتها الأصلية إلى مكانتها الأولى ولا يتحقق هذا إلا بإتباع سياسة وتخطيط جديدة ومحكمة .

سياسة التخطيط المتبعة في الجزائر منذ الاستقلال :

لقد حصلت الجزائر على استقلالها الوطني في الخامس من جويلية سنة 1962، بعد حرب تحريرية استمررت ما يقرب من ثماني سنوات (1954_1962) وبعد تضحيات جسام قدرت بمليون ونصف المليون شهيد ما عدا الجرحى والمعطوبين والخسائر المادية الأخرى، وقد كان على الدولة الناشئة أن تواجه فور الاستقلال مباشرة التركة الاستعمارية بكل ثقلها وصعوباتها ، وقد كان على رأس المشاكل التي واجهت الجزائر مشكلة إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية التي كانت في فترة الاحتلال (1830–1862) تعتبر لغة أجنبية وذلك عن طريق إدماجها في المنظومة التربوية في البداية ، ولو كان ذلك بصفتها كلغة فقط ، وهكذا كان الأمر حيث أدخلت اللغة العربية في المرحلة الابتدائية لمدة سبع ساعات في الأسبوع وذلك ابتداء من أول عام دراسي بعد الاستقلال وهو عام (1962–1963).[12]

حيث وزارة التربية 3.452 معلما للعربية و 16.450 للغة الأجنبية منهم عدد كبير من الممونين قصد سد الفراغ المدهش الذي أحدثه عمدا أكثر من 10.000 معلم فرنسي غادروا بلادنا بصفة جماعية زيادة على 425 معلما جزائريا من مجموع 2600 انقطعوا عن التعليم ليلتحقوا بقطاعات أخرى، وسندت لهؤلاء المعلمين المبتدئين مهمة التدريس بعد تدربوا في ورشات صيفية.

وفي انتظار أن يوضع إصلاح شامل يتناول بنيات التعليم ومضامينه وطرائقه أجريت على التعليم تطويرات مختلفة منذ سنة 1962.

ومن الإجراءات الفورية التي اتخذت نذكر مثلا الإطار الوطني الجزائري الذي وضع فيه التعليم في بلادنا استعادت سيادتها وحريتها واستقلالها، وأعادت الاعتبار للغة الوطنية والتربية البدنية والأخلاقية والمدنية والتاريخ والجغرافيا وغيرها، ثم شكلت لجنة وطنية عقدت اجتماعها الأول في الخامس عشر من ديسمبر سنة 1962 حددت الاختيارات الوطنية الكبرى للتعليم تلك تمثلت في التعريب والجزأرة[13].

وديمقراطية التعليم والتكوين العلمي والتكنولوجي ، لقد شهد الدخول المدرسي الثاني بعد الاستقلال أي سنة (1963–1964)[14] حملة كبيرة لتنظيم تدريس اللغة العربية وتعميم الإجراءات المتخذة لهذا الشأن على جميع

المدارس الابتدائية تدعيمها بتعليمات تطبيقية هكذا تقرر تعريب السنة الأولى الابتدائية تعريبا كاملا بتوقيت 15 ساعة في الأسبوع بتعلم التلاميذ العربية كل المواد المبرمجة وكان توقيت السنوات الأخرى يحتوي على 30 ساعة أسبوعية منها عشر ساعات للغة الوطنية أصبح، ثم أصبح توقيت اللغة العربية يتراوح حسب السنوات ما بين 15-20 ساعة في الأسبوع ما عدا الأقسام النهائية التي حافظت على 10 ساعات للعربية و 20 للفرنسية فكان لابد من توفير عدد كافي من المعلمين لأن اللغة العربية كانت غريبة في وطنها في عهد الاستعمار ومحكوم عليها بالهجر ثم شرع في تطبيق مبدأ ديمقراطية التعليم بفتح أبواب المؤسسات لكل من كان في سن الدراسة وحتى الذين سبق أن حرموا من حقهم في التسجيل، حيث رأينا أحيانا ولا غرابة في ذلك تلاميذ في السنة الأولى من التعليم الابتدائي وهم في سن التاسعة أو العاشرة، لم تعط لهم الفرصة قبل الاستقلال ليلتحقوا بالمدرسة في الوقت المناسب ، والجدير بالذكر أن الإجراءات المشار إليها – سابقا – شملت كذلك تخفيض توقيت بعض الأقسام وتوظيف عدد لا يستهان به من الممونين لشغل المناصب الشاغرة.

وفي سنة (1964-1965)[15] ، تقرر التحاق المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالتعليم العمومي قصد توحيد التعليم الابتدائي تدريجيا ، ومن هذا الباب شرع تدريس اللغة الفرنسية فيها كلغة أجنبية وتواصل تعليم جميع المواد الأخرى باللغة الوطنية، ونظرا للتقدم الذي سجله التعليم اقتضت الضرورة الملحة الاستفتاء عن الازدواجية في التعليم عن الأهداف التي ترمي إليها فوجدت منذ سنة 1964 برامج اللغة العربية والعلوم والرياضيات وتقرر تخفيض توقيت هذه المدة من ثلاث إلى أربعة ساعات لقلة الأساتذة الأكفاء وتعريب مادة التاريخ في السنة السادسة وإلغاء تدريس اللاتينية ويد في توقيت التربية الأخلاقية والمدنية والدينية ووضعت كتب المدرسية من طرف المعهد التربوي الوطني وغيرها من الإجراءات المستعجلة، ومرت سنتان أخريان (1965-1966) وأعداد التلاميذ تزيد ارتفاعا فسجل التعليم الابتدائي العمومي أثناء الموسم الدراسي (1966-1967) من التلاميذ 1.370.357 منهم 513.115 إناثا و 854.242 ذكورا ، وارتفعت نسبة الانتساب إلى 52% وهذا بفضل تظافر الجهود بين كل

الهيئات المنية بقطاع التربية، وفي أكتوبر 1967 وطبقا للقرار القاضي بتعريب السنة الثانية الابتدائية تعريبا كاملا ، تدرس كل المواد المبرمجة باللغة العربية وحدها بتوقيت عشرين سنة في الأسبوع.

ومن هنا كانت السنوات الأولى للاستقلال عبارة عن صراع في كافة الجبهات خاصة الدولة الجزائرية الناشئة من أجل تثبيت دعائم الاستقلال الوليد ولم تدخل الجزائر في عصر التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والتربوي ، إلا بعد حوالي سبع سنوات ، وذلك منذ تاريخ حصولها على استقلالها.

المخطط الثلاثي :

وقد كان أول مخطط وطني شامل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتربوية نفذته الجزائر بعد الاستقلال هو المخطط الثلاثي (1967–1970) وأهم ما جاء فيه بالنسبة للتعليم :

الخريطة المدرسية التي وضعتها إدارة الاحتلال ، كانت تركز على بناء المدارس و المعاهد العلمية في المدن الكبرى والقرى العصرية ، حيث يشكل الأوربيون أغلبية سكانها فقط، أما المناطق ذات الكثافة السكانية من الجزائريين فقد كانت شبه محرومة من التعليم بمختلف مراحله .

إن الجامعة الجزائرية التي تعتبر من أقدم الجامعات في الوطن العربي و القارة الإفريقية كانت كلياتها كانت محصورة في العاصمة ومخصصة تقريبا لأبناء الأوربيين وحدهم ولا يدخلها إلا عدد قليل جدا من أبناء الجزائريين.

المخطط الرباعي الأول (1970–1973) [16]

شهد التعليم أثناء المخطط الرباعي الأزل (1970–1973) تطورا كبيرا رسمت له بناء على مبدأ تعميم التعليم الابتدائي ، ومن الإجراءات البيداغوجية التي اتخذت في نطاق تطبيق هذا المخطط يجدر بنا أن نذكر التعديلات التي أدخلت على البرامج التعليمية وعلى الخريطة المدرسية التربوية والإدارية ومقاييس توجيه التلاميذ وتقييمهم على أسس علمية منطقية حتى تتفادى التسربات الكثيرة والتكرار الفادح هذا كله تمهيدا لإصلاح جذري شامل يستجيب لتطلعات عميقة ومشروعة ويندرج ضمن منظور يرمي إلى إعادة بناء النظام التربوي القائم ، وبعد نقاش الواسع وتبادل الرأي صادق المجتمعون على الإجراءات التالية:

- تعريب السنتين الابتدائيتين الثالثة والرابعة يجعل كل مواد البرنامج تدرس باللغة العربية مع إبقاء تدريس اللغة الفرنسية كلغة أجنبية.
- تعريب ثلث الأقسام المفتوحة في مستوى السنة الأولى متوسط، في جميع مؤسسات التعليم العام " المتوسطة والثانوية" وذلك بتدريس كل مواد البرنامج باللغة العربية وحدها بالإضافة إلى تدريس لغة أجنبية.
- تعريب تلك الأقسام العلمية في مستوى السنة الأولى الثانوية تعريبا كاملا أي بتدريس جميع مواد البرنامج باللغة العربية.

المخطط الرباعي الثاني (1974-1977) [17]

تتمثل خطوطه العريضة فيما يلي :

- اعتمد إصلاح التعليم المدرسة الأساسية كقاعدة تدوم الدراسة الإلزامية فيها تسع سنوات وتوفر بواسطتها تربية عامة.

ترتبط بهذه المدرسة الأساسية التي تعتبر بحق مؤسسات تعليمية ثانوية عامة أو مؤسسات تكوين مهني.

تعليمة ثانوية تقوم أساسا بإعداد التلاميذ للالتحاق بالتعليم العالي والجامعي وهذه البنية تترفع إلى فرعين رئيسيين وهما :

- تعليم ثانوي عام: يعد الطالب إلى البكالوريا في الثانوية التعليم العام.
- تعليم ثانوي متخصص : يقوم بإعداد الطلبة إلى بكالوريا التعليم الثانوي العام، وفي آن واحد يقوم بتكوين إضافي يهدف إلى دعم تفتيح المواهب والمهارات الخاصة.

إذا كانت الجزائر قد اعتمدت سياسات متنوعة لترقية المنظومة التربوية والقيام بمهمة التعليم، فإن سائر البلاد العربية عرفت أيضا هذا التنوع تبعا للظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عرفتها هذه البلدان إضافة إلى ذلك كله الظروف الجيوسياسية والمتمثلة في العولمة التي فرضت واقعا جديدا ينبغي للعالم العربي والإسلامي أن يخطط له تخطيطا بحيث يصون به هويته ويحافظ على كينونته المستقلة.

البحث عن الآليات النظرية لتفعيل تعليم اللغة العربية من المنظور السوسيولوجي والثقافي والمعرفي في منهاج اللغة العربية:

1 . التعليم والخطاب:

إن الإستراتيجية التعليمية التي انتهجتها معظم الدول العربية أعطت الأهمية الكبرى لطرق التحليل قصد فهم النصوص الأدبية، وبهذا كان توجهها إلى الطريقة التي أصبحت بدورها الهدف الرئيس للمتعلمين لا الخطاب في حد ذاته، فجعلت العربة قبل الحصان.

فتعلم المهارات اللغوية خارج الخطاب يجعلها معزولة وبعيدة عن الإدراك، بل يصعب توظيفها في السياقات المختلفة في التعبير عن الأفكار والأحاسيس والمشاعر، وبهذه الطريقة تتسع الهوة بين اللغة ومجالات استعمالاتها. فإذا أردنا أن نبي جيلا قويا مدركا لقضايا وطنه وأمته ودينه، فعلينا بتعليمه الخطاب.

وتاريخيا كان الخطاب دائما من الأولويات في بناء الأجيال، فمنذ القرن السادس قبل الميلاد فهم الإغريق هذه الحقيقة فربطت الأصول الفكرية والفلسفية بالفن والجمال[18].

ولقد كان البلاغيون الإغريق يتوافدون إلى روما لتأسيس مدارس بلاغية وذلك ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد، وكانت هذه المؤسسات التعليمية تشتغل وفق مستويات العمر ضمن برنامجين أحدهما موجه للأطفال ويدور حول النصائح وهي نوع من المباحث الإقناعية وخصوصا في الجنس الاستشاري والثاني موجه للكبار ويتضمن المنازعات المتمثلة في الجنس القضائي.

ومن بين أهم البلاغيين الذين وضعوا الركائز التعليمية لمادة البلاغة هو البلاغي الروماني (كنتليان Quintilien(35.م)) فلقد كان معلما رسميا يتقاضى راتبا من الدولة ويضم عمله في المؤسسة الخطابية اثني عشر كتاباً تعليمياً للخطيب من طفولته إنه تصميم كامل للتكوين البيداغوجي وهذا هو معنى المؤسسة .

لقد أدرك (كنتليان) أهمية البلاغة والدور الخطير الذي لابد أن يمارسه في النشاط التعليمي، ولذا فقد كانت له ملاحظات عميقة وآراء قوية في ماهية البلاغة بصفة عامة، كما كانت له آراء ومواقف من أراء أفلاطون وأرسطو في تصوراتهما لهذا العلم، ذلك أنه رفض منذ الوهلة الأولى الشك الذي يحيط بالبلاغة وصحح كثيرا من الآراء التي فسرت خطأ موقف أفلاطون من الخطابة فالاعتقاد بأن الخطابة في رأي أفلاطون ليست فنا ولكن نوعا من الدهاء في خلق البهجة والإرضاء.[19]

من هنا ندرك الأسباب الرئيسة للمنحى التعليمي عند (كنتليان) فقد أراد إصلاح البلاغة في فترة ما بعد (أفلاطون) و(أرسطو) لذا كان لابد من إصلاح شامل لمادة البلاغة وتعليمها للناس منذ نعومة أظفارهم حتى يضمنوا نجاحا في ميدان الخطابة ولا يتأتى ذلك إلا من خلال برنامج متأن رصين في الدراسات اللغوية،ولبلوغ الفصاحة لابد للمرء أن يعرف بالضبط ما يمكنه أن يفعل باللغة.[20]

وفي حياتنا المعاصرة اليوم فإننا نلاحظ حرص البلدان الغربية على بناء منظومة خطابية كأداة للهيمنة الفكرية والتكنولوجية وبالتالي الهيمنة السياسية والعسكرية، لقد ورثوا من الإغريق والرومان فكرة أنه من يمتلك الكلمة يمتلك القوة والغلبة والهيمنة، إن الخطاب اليوم لم يعد مجرد بناء لغوي فحسب وإنما أصبح بنية فكرية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية، أي بنية خطابية متكاملة، على هذا الأساس يرى (ميشال فوكو) أن الخطاب هو بنية معقدة من العلاقات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

2 . التعليم والثقافة:

يقول مالك بن نبي:"إن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل وإنما في الأفكار، وما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا، فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالا بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم"[21]، إن الثقافة بمعناها التربوي هي من أكبر عوامل نجاح العملية التعليمية لأنا دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي "فإذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي والتمدن ، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط في الهاوية".[22]

إن الفكر والثقافة من المتطلبات الضرورية لبناء أية منظومة تربوية وتعليمية، يقول ابن خلدون:"إن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة، فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته، وهو وجدان حركة للنفس، في البطن الأوسط من الدماغ. تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب، وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوجه إلى المطلوب. وقد يصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته، فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما، أسرع من لمح البصر إن كان واحداً. وينتقل إلى تحصيل وسط آخر إن كان متعدداً، ويصير إلى الظفر بمطلوبه. هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات"[23].

3 . التوجيه الجمالي:

يربط مالك بن نبي بين الجمال والأفكار الكبيرة فالمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة فلا بد أن ينعكس ذلك على أفكاره وأعماله ومساعيه. يقول:"إن الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأفكار، وهي تتولد من الصور الموجودة في الإطار الاجتماعي فتنعكس في النفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره."[24] إن هذا الكلام يؤدي بنا إلى الحديث عن النصوص المختارة للتلاميذ في الأطوار الابتدائية فينبغي أن تحتوي على هذا القدر من الجمال الذي يهذب النفوس وينمي قدرات التلميذ في مجال التفكير وسعة الخيال ، فالنصوص الجميلة هي قطعة من طفولة كل متعلم بها يستطيع أن يدرك الطبيعة كما يمكنه معرفة المجتمع وأحواله.

خاتمة :

إن سياسة التخطيط اللغوي في بلدان العالم العربي ما زالت لم تتخط المشاكل والعقبات التي تواجهها على كافة الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية.إلا أن الجهود المبذولة من طرف الحكومات العربية ما زالت بعيدة عن

الأهداف المسطرة.إن عامل التوحيد في هذه السياسات يكاد ينعدم تماما مما صعب من بناء منظومة فكرية عربية قادرة على تحدي الرهانات في عالمنا المعاصر .

الهوامش:

1-Jean Louis Calvet La guerre des langues et les populations linguistiques hachette littératures 1999 page 33

2 - Ibid 63-67

3 - Ibid 75

4 - voir H.Boyer, sociolinguistique territoire et objets Delachaux et Niestlé 1996 Lausanne –suisse- page147-148-149

5 - Ibid p.148

6 - عبد الفتاح عفيفي علم الاجتماع اللغوي المؤسسة الوطنية للنشر 1996 الجزائر ص 166

7 . المرجع نفسه ص166

8 – UNESCO,Section du patrimoine Immtériel,2006 (CLT-2006/WS/5Rev.)

9. ينظر محمود مفتاح , جريدة الشوق اليومي ركن الرأي عدد252 ص15

10 . المستقبل – الأحد 23 كانون الأول 2007 – العدد 2828 – نوافذ – صفحة 11

11 د. محمد العربي ولد خليفة – مهام الحضارية – ص 286.

12 الطاهر زرهوني – التعليم قبل الجزائر قبل الاستقلال / المؤسسة الوطنية بالجزائر 1994/ص41.

13 الجزأرة : هي إزالة آثار العناصر الداخلية الوافدة من مجتمعات أو ثقافات لا تمت بصلة للمجتمع الجزائري.

14 تركي رابح – أصول التربية والتعليم – ديوان المطبوعات الجامعية/1982.

15 الطاهر زرهوني– التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ص43

16 . المرجع نفسه، ص47

17 المرجع نفسه ، ص52

18 - ينظر أفلاطون: **محاورة إيون** الكتاب العاشر ترجمة د/محمد صقر خفاجة ود/ سميرة القلماوي القاهرة ص 534.

19 - ينظر روي هاريس وتولبت جي تيلر أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير تعريب د/أحمد شاكر الكلابي دار الكتاب الجديد ط. الأولى 2004 لنغازي . ليبيا . ص 104

20 - المرجع نفسه ص 108

21 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ترجمة عبد الصابور شاهين الطبعة الرابعة دار الفكر دمشق سوريا 1984 ص 117

22 - المرجع نفسه ص77

23 - مقدمة ابن خلدون ابن خلدون الصفحة : 344

24 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ص82